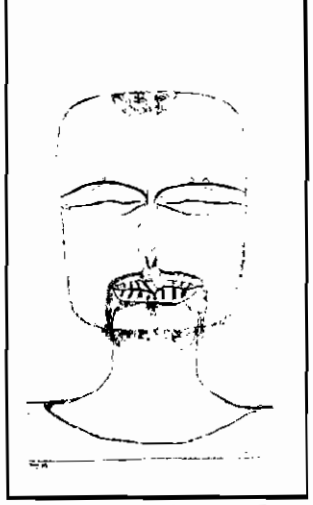

(بولي كلي) .. موسيقار الشكل والمساحة

(١٨٧٩ - ١٩٤٠)

على المنحدر الخطر ، يفيد المسافر
من فضل النهار ، والندى بلا حصى
والعيون المزرقة بالحب ، تكشف عن موسمها
وهو يضع في كل الأصابع خواتم من الكواكب الكبرى

* * *

وعلى الشاطئ ترك البحر أذنيه
وتركت الرمال المحفورة على المكان آثار جريمة جميلة
أن العذاب أشق على الجلادين منه على الضحايا
والخناجر علامات والرصاصات دموع

obeikandi.com

قبل أن ينقضي عام ١٨٧٩م بثلاثة عشر يوما ولد " بول كلي " بالقرب من مدينة " بون " بسويسرا لأبوين سويسريين ، ولكنه نشأ نشأة ألمانية ، فقد التحق بعد تسعة عشر عاما من مولده ، بمرســم الفنان " كنيء " ، ثم بمدرسة الفنون " بميونيخ " ، وتخرج فيها ليمارس الرسم الكاريكاتيري ، الذي لم يتفق بسخريته اللاذعة ، وطبيعة " بول " الشاعرية ، فلجأ إلى التصوير بمعناه العريض ، متأثرا بالفن الحديث المزدهر في فرنسا .

وفي سنة ١٩٠١ قام برحلة إلى إيطاليا بصحبة " هرمان هيلر " وبعد سنوات قليلة قام برحلة أخرى إلى باريس ، ومع بداية عام ١٩٠٦ تزوج "كلي" من " ليلى ستامب " عازفة البيانو التي كانت تتلقى دروسا من والد "كلي" مدرس الموسيقى الشهير .

ظل " كلي " يمارس الفن في ميونيخ أربعة عشر عاما ، تعرف خلالها على حياة " الأخذ والعطاء " ، كما تعرف على فن الآخرين : (سيزان وفان جوخ) وعلى الآخرين وفنهم (كاندنسكي وفرانز مارك) وعرض معهما بواكير إنتاجه سنة ١٩١٢ .

وفي سنة ١٩٢٠ عين " كلي " مدرسا لمادة التصوير ، في الوقت الذي عين فيه " كاندنسكي " " وفاينتجر " لتدريس نفس المادة بمعهد " باوهاوس " بمدينة فايمار ، وبعد ست سنوات ، بعد أن تأكدت الصداقة بين الفنانين الثلاثة ، انضم إليهم " جافلنسكي " وكونوا جماعة " الأربعة الزرق " حيث عرضوا أعمالهم معا في طول ألمانيا وعرض أمريكا .

وعاد كلي من رحلته إلى مصر سنة ١٩٢٨ ليعمل أستاذا بأكاديمية الفنون الجميلة بداسلدورف " ولم يمنعه منصبه من زيارة سريعة لجزيرة صقلية سنة ١٩٣١ . ولكنه هجر ألمانيا تحت ضغط النازي سنة ١٩٣٣

عائـــدا إلى سويسرا ليستقر في " بيرن " حيث ولد وحيث أصيب في سنة ١٩٥٣ بمرض خطير لازمه حتى ودعه العالم في ليلة ٢٩ يونيو قبل أن ينتصف القرن العشرون بعشر سنوات كاملة .

لقد كان ظهور " كلي " في الوسط الفني أشبه بالخوارق ، فمنذ القرن الخامس عشر عصر ألمانيا الذهبي ، لم تشهد البلاد عبقريا مثل " كلي " ، كما لم يشهد النصف الأول من القرن العشرين فنانا مثله .. فنان يبتعد عن "الوحشية" و"التكعيبية" بقدر ما يقترب من " التعبيريه .. " الخالصة ، المتفجرة من ذاته هو وليس من ذات غيره ، حتى أصبح كلي أكثر الفنانيـــن التعبيريين الألمان جدة وعالمية، وحتى أصبح لا ينافسه في " التربع " فوق قمة التصوير الحديث غير " بيكاسو " أو بتعبير أكثر علما وأقل عاطفـــة أصبح لا ينافس " بيكاسو " على " عرش " الفن الحديث سوى " بول كلي " .

أما الفن الذي اختاره " كلي " ذلك الفن الذي أذابه وذاب فيه فصعب المنال مستحيل التكرار ، وان بدا سهل الطابع ، بسيط الشكل ، عضوي التعبير.. فـــن استطاع أن يرفض " الكليشيهات " الجاهزة والرؤى المطروقة، ليغوص في عالم خفي لا يعبر عن نفسه دفعة واحدة ، ولكنه يتكشف شيئا فشيئا كما لو كان حلما يجري تفسيره من خلال أحداث الواقع .

والواقع أن " كلي " لم يدخل عالم الفن فارسا يصول ويجول فوق جواده، يضرب بسيفه في صدر الفراغ فيصرع شيطان الفن ويفتح أبواب الخلود ، ولكنه ظل يرسم ويخطط ويلون طويلا وهو يقترب ببطء وتواضع من أسرار الخلود .. ومن هنا اكتسبت أعماله صفة العمق والتفرد ، حتى يخيل إلى المشاهد أنه أمام عالم من التيه والواقع أنها معان جديدة صاغها

إيقاع يسعى أحيانا إلى الوحدة ، وأحيانا أخرى إلى التجمع ، وأحيانا أخيرة إلى التكسير ، ولكن التوازن هو الذي يحكم الشكل العام في كل هذه الأحيان.

كان " بول كلي " معتدل المزاج ، هادئ الطباع ، ولذلك استبقى فنه في دائرة واحدة لا يخرج عنها ، وخط مستولا تعرج فيه .. حتى أن أحجام صوره لم تزد أبدا عن ٣٠ أو ٤٥ سم . لكن هذا الفن المتوحد ولد كامل النمو والدسم ، مما جعله في غير حاجة إلى تطور أو تغير . وكان " كلي " يجاور " بيكاسو " من حيث الابتكار والحيوية ، كما كان يجاور " كاندنسكي " من حيث تدفق الألوان وثرائها .

وكما عثر " كلي " على لغته التشكيلية الخاصة ، عثر على رموزه الفكرية الخاصة كذلك . ولعل أبرز هذه الرموز في لوحاته هي تلك السهام التـــي تشير – اجتماعيا – إلى عالم الناس الداخلي – وميتافيزيقيا – إلى عالم الإنسان السفلي – وواقعيا – إلى عالم الأشياء الخفي .

وفيما عدا السهام ، نلتقي في لوحات " كلي " بعلب المنازل في المدينة ، وخطـــوط الأسماك في النهر ، كما نتبين شعاعا لضوء أو طيفا لسحب ، وكما نلمح مسالك الطرق والممرات ، أو كل ما يثير في الإنسان تلك التساؤلات الملحة التي لا تنتهي ، والتي لا تجد الجواب ، ولكن الفنان ينجح، بعد أن يجسد رؤاه ، في أن يجسد أيضـــا وبنفس المقدار حركة هذه الأشيـــاء الدائمة، أو ديمومة هذه الأشياء الغامضة .

وينتهي " كلي " من الفكر والشكل ليفرغ اللون ، يآخي بين الأزرق والزاهي والرمادي الداكن على مساحة مسطحة لا تموج فيها ولا انكسار ، وهو يديـــن في هذا لسيزان كما يدين له في تأكيده على أن الطبيعة ليست فيما يظهر ولكنها فيما يخفي في الأعماق ، بمعنى أن الألوان ما هي إلا

تعبير عن هذه القوى الداخلية ، ولهذا يصبح اللون جزءا لا يتجزأ من بنية اللوحة أو من بنائها .

ثم يتخطى " كلي " ، " سيزان " ليملأ فرشاه بألوان " الحوشيين " أحيانا، فيضع الأخضر فوق البرتقالي فوق الموف فوق الذهبي فوق الأصفر ، ولكنه لا يكدسها مثل الحوشيين ، فهو يصب ألوانه لا لتخاطب العين وحدها ، وإنما لتنفذ إلى الأذن بإيقاعاتها المتميزة ، كإيقاعات الأحمر والأخضر التي تظهـر وجه القمر ذلك الضاحك في صمت الذي يشبه حلما يهيمن على عالم الأحلام .

وهكذا فإن الفن الملون لم يشهد تلك القدرة الفائقة ، والموهبة الخارقة على استخدام أقصى درجات الأبيض إلى جانب أقصى درجات الأسود ، بحيث تمتلئ ساحة اللوحة بالحركة .. وغالبا ما تكون هذه الحركة درامية في صميمها وتصميمها .

إن اللوحة الزيتية التي رسمها " كلي " سنة ١٩٢٩ ، تحت عنوان "شارع رئيسي وشوارع فرعية تكشف عن طريقة الفنان في الرؤية والحس ، فاللوحة تبدو وكأنها سجادة من السجاجيد القديمة النادرة المليئة بالشقوق ، المزودة بالقطع الصغيرة المتلاصقة والمشغولة على طريقة التنجيد ، في هذه اللوحة تظهر تلك الخطوط المحددة التي عرف بها " كلي " والتي تشير إلى الاتجاهـات الرئيسية ، أعني تلك الاتجاهات التي تنفتح أمام ناظرينا . فإذا ما تركنا النظر يتبع أو يتابع هذه الطرق ، رأينا في النهاية أعماق الصورة أو أعماق الكون بحسب قوانين المنظور الهندسي .

وهكذا يبدو الشكل العام للوحة كما لو كان سهلا ممتدا محددا بشبكة "دقيقة" من الخطوط المتداخلة، هذا الشكل العام يحيلنا للنظرة الأولى إلى

منظر نهري، حيث تلوذ شواطئ الوادي الكبير بسطح النهـــر العريق، أغلب الظن لأنه نهر النيل ، الذي ترك أثره عميقا في نفس " كلي " واضحا على فنه بعد أن قام في عيده الخمسيني بزيارته الهامة إلى مصر .

أما أهمية هذه الزيارة فترجع إلى " سر الخلود " الذي اكتشفه " كلي " من واقع مشاهداته للطبيعة وهي تمسك بأطراف الكون ، وتغوص في أعماق اللانهائية .

وبهذا الاكتشاف الحدسي استطاع " كلي " أن يتوج فنه بعد أن أضاف إلى تعمقه الوجداني المتفتح ، ذلك التعمق الفكري الخلاق ، لذلك جاءت كل اللوحات التي نقل فيهـــا " كلي " الطبيعة المصرية عبارة عن محادثة بالألوان يجريها الفنان مع العالم من حوله .

وكما كشف " كلي " سر الخلود استطاع أن يكشف " سر الوجود " أو تلك العلاقة الجوهرية بين الطبيعة والكون من ناحية ، وبين الإنسان والأشياء من ناحية أخرى .

وفي هذا يقول " كلي " نفسه : إن العنصر المحدد من العناصر الأربعة وهي الهواء والماء والأرض والنار . لابد وأن يمتزج برؤى العالم ، فبعد مجابهة هذه العناصر بعضها ببعض ، لا أرى وجوداً لأي فن تجريدي ، ولا يبقى بعد ذلك غير التجريد الزائل .. إن المادة هي العالم ، حتى لو لم يكن هذا العالم هو العالم المرئي . ولقد تعمق " كلي " في دراسته العلمية للطبيعـــة والنباتات بصفة خاصة ، واهتم بمـــا أسماه " الإلمام بالأشياء المحيطة بالطبيعة والحياة " فكان يحتفظ في مرسمه بمجموعات مختلفة من هذه " الأشياء " بعد ترتيبها ترتيبا " عنصريا " ولم يكتف بتصوير النباتات "

الموجودة " فكان يتخيل نباتات " ما بعد الوجود " تلك التي قال عنها جوته " من الممكن اكتشاف نباتات العـدم ، هذه النباتات التي إن لم تكن موجودة بالفعل ، أمكنها أن توجد وأن تكتسب حقيقتها الملموسة " .

ولهذا لم يبتعد " كلي " لحظة عن هدف الفن منذ أقدم العصور ، أعني إعادة خلق العالم الخارجي .. فسار على طريق الهدف برؤى أكثر رحابة وأشد تجريدا ، ولكنه أضاف ما أسماه " الإجابة على تساؤلات الإنسان الخيالية " وإن كانت هذه الإجابات قصيرة وقاطعة وغير مرئية . ولهذا اعتبره " جورج شميد " أكبر واقعي في العصر الحديث .

وفيما بين عامي ١٩١١ و ١٩١٤ وبينما كان " كلي " يدرس باهتمام بالغ ، ويطبق بعناية أبلغ نظريات التكعيبيين والمستقبليين والتجريديين والأورفيوسيين كان يجري تجاربه المستمرة على " تكوين مساحة اللوحة ." وشغلها بما يشبه الإيقاع الحركي ، وإضاءتها بالألوان المتموجة ، التي أصبحت الآن هي أساس فن " الأوب أرت أو الفن البصري " .

كان " كلي " يبدأ من النقطة التي تلد الخط الذي يتعدد وينتشر ويملأ المساحة الفارغة ، ثم يكون الضوء والظل ، إلى أن يأتي دور اللون ، فتنتهي اللوحة .

ولم يكن يشغل باله بالمحتوى فقط بل كان يعاني من البناء أو الشكل. ولم يكن يهتم بوضع عنوان للوحة ، ولكنه كان يعنونها في النهاية على سبيل الاستعارة الشعرية .

إن بصمات " كلي " تبدو واضحة في كل لوحاته ، وفي كل لوحاته تتضح الأعماق وتتكشف الأسرار ، فالطبيعة ترتعش رعشتها الأولى ، والزهور تتفتح عند السفح وفوق التل وعلى جانبي المنحدر ، والطيور

تزقزق في العش وعلى فروع الشجر .. إنه الوحيد من بين فناني العصر الحديث الذي استطاع أن يصور روح الطفولة في تلقائيتها وعفويتها بعقل الفنان الناضج وتأمله الواعي ، وإن كانت رسومه تنساب في حرية مطلقة وتسبح في ألوان لا تحديد ولا حدود لها .

وكما قدم الشاعر الفرنسي " لافونتين " قصصا تسعد الأطفال وتهم الكبار وكما قـدم الشاعر الفرنسي أيضا " أنطوان دوسانت أكزوبيرى." أشعارا تهيمن على أفئدة الصغار وتجذب عقول الكبار، استطاع "بول كلي" أن يكون المصور الذي يتنافس الأطفال والكبار كل منهما على ضمه إلى مملكتهـم ، وفي هذا يقترب " بول كلي " من " بول فاليري " يقترب المصور الشاعر من الشاعر المصور ، فيعلو الأول بفن التصوير إلى مستوى الشعر ، ويعلو الأخير بالشعر إلى مستوى فن التصوير .

obeikandl.com